

الفصل الخامس

الإسلام والوعد المقدس

وجاء محمد ﷺ مصدقاً لمن قبله من الرسل ، مصدقاً بآيات إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، لم يجب ما قبله ولم ينسخ ما سبق ولكن أتم مرحلة التطور في كمال الأديان السماوية . (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون^(١)) .

ولقد ذكرت هذه الأديان السماوية في القرآن الكريم بأنها الإسلام وأن أتباعها ومعتنقيها والمؤمنين بها مسلمون (وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون^(٢)) وعن إبراهيم عليه السلام (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين^(٣)) .

فالإسلام هو عقيدة السماء منذ بعث الأنبياء على وجه الأرض وكانت رسالة الله إلى عباده على لسان أنبيائه منذ نوح حتى محمد عليهم السلام أجمعين (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين

(١) آل عمران آية ٨٤ .

(٢) المائدة آية ١١١ .

(٣) آل عمران آية ٦٧ .

ذرية بعضها من بعض والله سميعٌ عليمٌ^(١)) وجاء كلُّ نبيٍّ مصداقاً لمن قبله من الأنبياء والرسل (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون^(٢)) .

وفي لوقا « وقال لهم هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم أنه لا بد أن يتم جميع ما هو مكتوب عني في ناموس موسى والأنبياء والمزامير^(٣) » وفي أعمال الرسل « أيها الرجال الإخوة بنى جنس إبراهيم والذين بينكم يتقون الله إليكم أرسلت هذا الخلاص ؛ لأن المساكين في أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا . وأقوال الأنبياء التى تقرأ كل سبت تحوها إذ حكموا عليه^(٤) » .

فالمسيح عيسى بن مريم قد بعث إلى بنى إسرائيل كما بعث إلى الناس جميعاً لا فرق بين يهودى وأمى « وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئاً من أورشليم^(٥) » ، كما بعث محمد إلى قومه وعشيرته أولاً ثم كانت رسالته إلى العالم أجمع (وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون^(٦)) .

والإسلام كما ذكر في القرآن هو دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

(١) آل عمران آية ٣٣ - ٣٤ .

(٢) المائدة آية ٤٤ .

(٣) لوقا ٤٤ : ٤٤ .

(٤) أعمال الرسل ١٢ : ٢٦ - ٢٧ .

(٥) لوقا ٢٤ : ٤٧ .

(٦) الشعراء آية ٢١٤ - ٢١٦ .

ومحمد وكلّ الأنبياء ومن تبعهم من الناس ، وليس في التوراة أو الإنجيل ما ينقض ذلك . فالإسرائيليون نسبة إلى إسرائيل وهو يعقوب وقد دعى بإسرائيل أى المجاهد في سبيل الله تكريماً له ، واليهود نسبة إلى دولة يهودا وكان الفرس أول من أطلقها على الإسرائيليين حين نسبوهم إلى دولتهم فهي لا تعنى ديناً وإن غدت تعنى كلّ من يدين بالشرعة الموسوية ، والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية ديناً كما لا تعنى جنسية معينة وكان الكتعانيون أول من أطلقها على إبراهيم وذريته كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

والمسيحية هى أيضاً نسبة إلى المسيح والنصرانية نسبة إلى الناصرة حيث ينسب السيد المسيح وقد وردت في القرآن صفة لأتباع المسيح وشاعت في اللغة العربية على هذا المعنى ، ويشيع اصطلاح مسيحي ومسيحية في اللغات الأوروبية ولا تعرف هذه اللغات مصطلح نصراني ونصرانية ، أما القبطية والأقباط فتطلق على كلّ من يدينون بالمسيحية في مصر ، وهم في الأصل أتباع المذهب اليعقوبى وإن تجاوزتهم إلى غيرهم من أتباع المذاهب المسيحية الأخرى في مصر جوازاً ، وعلى هذا القياس نسب الأوروبيون الإسلام إلى محمد فقالوا المحمدية وقالوا عن المسلمين المحمديين .

ولم يرد في التوراة مسمى للعقيدة اليهودية وكلّ ما جاء قريباً من هذا المعنى أنها بركة الرب التى حلت في إبراهيم وذريته ويبدو أنها بركة الرسالة على ما يظهر من قصة يعقوب وعيسو مع أبيهما أسحق حين أراد إسحق أن تكون بركته لعيسو واحتالت امرأته ليعقوب حتى تكون له بركة أبيه بدل أخيه عيسو . وذكرت في سفر الخروج على أنها عهد الرب إلى بنى إسرائيل « وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هوذا دم العهد الذى

قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال^(١) » وليس في هذا ما يدل على صفة أو اسم .

وفي المسيحية أنها ملكوت السموات وملكوت الله وأنها العمادة باسم الآب والابن والروح القدس وأنها التركيز باسم الرب وكلّ هذه صفات وليست مسعيات ، أما في الإسلام فقد جاءت التسمية صريحة قاطعة للعقيدة فهي الإسلام أو الدين الإسلامي (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)^(٢) .

فالإسلام ليس ديناً جديداً يبشّر به محمد ﷺ وإنما هو الدين الذي بعث به إبراهيم وموسى وعيسى ، دين عبادة الله وحده لا شريك له ، الوحداية المطلقة المنزهة عن كل شرك وهي آخر مرحلة من مراحل التطور في إدراك حقيقة الله ، تلك المراحل من التطور التي مرّت بها رسالة السماء منذ بعث نوح حتى محمد عليهما السلام .

(إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً^(٣)) .

ففي محمد ﷺ انتهت بركة إبراهيم ورسالته كما انتهت من قبل إلى إسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى عليهم السلام .

وقد جيت رسالة يسوع كما قلنا دعوى إسرائيل في التميز والاختيار ونسخت أن تكون الأرض المقدسة أو أرض الميعاد لغير المؤمنين بملكوت السموات فاللعنة تحلّ بإسرائيل كغيرهم من الأمم حين يضلّون » ياأورشليم ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت

(١) خروج ٢٤ : ٨ .

(٢) المائة آية ٣ .

(٣) النساء آية ١٦٣ .

أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا .
هوذا بيتكم يترك خراباً ، لأني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى
تقولوا مبارك الآتي باسم الرب^(١) .

واللعنة تلاحقهم في القرآن بكفرهم وضلالهم كما لاحقتهم من قبل في
الإنجيل (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً
وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . فبما نقضهم
ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف
بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً . وبكفرهم وقولهم على
مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه
ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه
وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته
ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم
طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا
عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً^(٢)) .
والإرث كما قلنا هو إرث البركة والرسالة والاختيار للأرض المقدسة
وليس للشعب . ووجه الاختيار للشعب أى شعب أنه اختص بالرسالة كما
اختص بنو إسرائيل برسالة موسى والأنبياء ولن تحل في الشعب المختار
بركة العهد وبركة الرسالة مالم يؤمن ، ولن تكون له الأرض الموعودة
ما لم تحل فيه بركة العهد وبركة الرسالة معاً ، فإذا تجاوزناه فقد حرم منها
إلى الأبد ، فإذا اختص بنو إسرائيل بالرسالة فقد حلت فيهم بركة العهد

(١) متى ٢٣ : ٣٧ - ٣٩ .

(٢) النساء آية ١٥٤ - ١٦١ .

وكانت لهم الأرض الموعودة ما ظلّوا قائمين على العهد ، فإذا تجاوزوه وتجاوزتهم الرسالة لم يكن لهم في الأرض الموعودة نصيب ولن تكون لهم عودة إليها .

أما العودة التي أشار إليها أنبياءهم فقد كانت قبل ظهور المسيح حين خلّصهم كورش الفارسي من سبي بابل وعاد بهم إلى أورشليم فأقاموا جدرانها وأعادوا بناء الهيكل ولم تشر التوراة إلى عودة ثانية لإسرائيل ، إلّا عودتهم الروحية يوم القيامة وهي التي يشير إليها حزقيال كما تشير إليها آية الإنجيل « أنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب » وكانت تلك الآية حين أخذ المسيح عليه السلام يخبر حواريه ويتنبأ لهم بعزم اليهود على صلبه . وفي هذه العودة يتساوون بغيرهم فهي عودة البعث والنشور . وإلى تلك العودة الروحية لإسرائيل يشير القرآن بقوله : (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً)^(١) .

ولقد قلنا من قبل إن الاختيار للأرض المقدسة وليس للشعب وهي الأرض التي باركها الله لتكون قدس أنبيائه وإشراقة رسالاته إلى العالمين وهي أرض الميعاد ، التي وعد الله بها الصالحين من عباده وآثر بها إبراهيم وذريته من بعده كما آثرهم بالبركة والرسالة حتى تكون الأرض المقدسة طهوراً ومن عليها مطهرين . (ونجيناها ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين)^(٢) وينقضى هذا الإيثار بشيوع الرسالة بين العالمين من كانوا من ذرية إبراهيم أو من غير ذريته ، فالأرض قد باركها الله للعالمين جميعاً لا لإبراهيم ولا لذريته وحدهم ولكنها الأرض المقدسة عند كل من آمن

(١) الإسراء آية ١٠٤ .

(٢) الأنبياء آية ٧١ .

برسالات السماء (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين^(١)) .

وجب القرآن كالمسيحية في ذلك ما أدعت إسرائيل من تميز على أبناء إبراهيم الآخرين ومن استعلاء على غيرهم من الخلق فكل أبناء إبراهيم أمة واحدة (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون^(٢)) بل صان الدين الإسلامي أتباعه ومعتقيه عن التمايز والاستعلاء (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم^(٣)) .

وفسر البيضاوي تلك الآية الكريمة بقوله : « أى خلقناكم من أب وأم فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب ، وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ، ليعرف بعضكم بعضاً لا للتفاخر بالآباء والقبائل » .

والإسلام دعوة التوحيد إلى الناس كافة لا فرق بين عربى وعجمى أو أسود أو أبيض ، أو من ذرية إبراهيم أو غير ذريته كقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(٤)) وقوله عليه السلام « بعثت إلى الناس كافة » وقوله « أنا رسول من أدركت حياً ومن ولد بعدى^(٥) » . وعن أبي هريرة « قيل يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم . فقالوا : ليس عن هذا نسألك . فقال : فعن معادن العرب تسألونى ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم

(١) الأنبياء آية ٨١ .

(٢) الأنبياء آية ٩٢ .

(٣) الحجرات آية ١٣ .

(٤) سبأ آية ٢٨ .

(٥) الأحاديث فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

في الإسلام إذا فقهوا ، وإن كان الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو أنه ابن زنجية لغية ، وأن العاصي الكافر محطوط الدرجة ولو أنه ابن نبيين^(١) . »

وقال عليه السلام في حجة الوداع « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ ، كُلُّكُمْ لَأَدَمَ ، وَأَدَمُ مِنْ تَرَابٍ ، لَيْسَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى . »

والناس في الإسلام سواء وذلك أسمى ما يصل إليه الارتقاء الإنساني في سلم التطور الحضاري وما كان الرسول عليه السلام إِلَّا لِيَسْوِيَ بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعاً لَا يُؤْثِرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يَتَبَيَّنَ بِنِسَانٍ عَلَى إِنْسَانٍ ، وَفِي قِصَّةِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ مَا يَبْرُزُ هَذَا الْمَعْنَى الْجَلِيلَ فَقَدْ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ وَعِنْدَهُ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِمَنِي مِمَّا عَلِمَكَ اللَّهُ . وَكَرَّرَ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَشَاغُلُهُ بِالْقَوْمِ ، فَكَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ قِطْعَةً لِكَلَامِهِ وَعَبَسَ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ (عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى^(٢)) . فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَكْرَهُ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ وَيَقُولُ إِذَا رَأَاهُ « مَرْحَباً بِنِ عَاتِبِنِي فِيهِ رَبِّي ! » وَاسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ^(٣) .

وَالْإِسْلَامُ فِي شَعَائِرِهِ عُنْوَانُ الْمَسَاوَاةِ التَّامَّةِ بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعاً فَالْإِسْلَامُ فِي الصَّلَاةِ يَقْفُونَ صَفَوْحاً إِلَى جَوَارِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضُ كُلٌّ فِي مَكَانِهِ . الَّذِي قَدَّمَ عَلَيْهِ لَا يَنْزِعُهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا يَتَقَدَّمُ سِوَى الْإِمَامِ وَمَنْ عَسَاهُ يَكُونُ مِنْ

(١) مقدمة كتاب الأنساب لابن حزم الأندلسي ص ١ .

(٢) عبس آية ١ - ١٠ .

(٣) تفسير البيضاوي .

رجال العلم ، والناس يوم الحج الأكبر يقفون بعرفة في أردية واحدة يدعون ويبتهلون لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم فالكل في عقيدة السماء سواء .

والتميز الذى ادعاه بنو إسرائيل واتخذوا من آى التوراة دليلاً عليه هو تميّز الإيمان والتقوى لا تميز العنصر أو النسب فهم كعادتهم قد فسروا التوراة تفسيراً مادياً وجعلوا من عهود الرب صفقة تجارية . كما يقول « ويلز » عقدها الرب مع أبيهم إبراهيم لصالحهم . وهو التميز الذى أنكرته المسيحية كما أنكره الإسلام ، بل إن السيد المسيح لبوغل فى دحض هذا التميز والاستعلاء إلا فى التقوى ومحبة الله « الحق أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا ، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغرب ويتكثرون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات . وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجة^(١) » .

والإنسان بعمله لا بنسبه « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه وافعلوه . ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون^(٢) » والناس بأعمالهم لا بأقدارهم « وأكبرهم يكون خادماً لكم ، فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع^(٣) » .

فالفضل والتميز للذين لبني إسرائيل هما فضل البركة وتميز الرسالة مما لا ينكره الإنجيل كما لا ينكره القرآن . (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين)^(٤) .

(١) متى ٨ : ١٠ - ١٢ .

(٢) متى ٢٣ : ٢ - ٣ .

(٣) متى ٢٣ : ١١ - ١٢ .

(٤) البقرة آية ١٢٢ .

ويزول ذلك الفضل وذلك التميز بانتقال البركة منهم إلى غيرهم وتجاوز الرسالة قومهم إلى أقوام آخرين ، بل إنها ليزولا عنهم إذا ما ضلوا عن ذكر ربهم وكفروا بأنعمه وخالفوا وصاياه ، بذلك قالت التوراة وبه قال الإنجيل والقرآن .

وقد ضلّ بنو إسرائيل قبل أن يبعث فيهم المسيح وظلّوا على كفرهم ويهتأنهم بعد أن بعث إليهم وازدادوا كفراً ويهتأناً قبل رسالة محمد وبعد رسالته ، بل إن كفرهم ويهتأنهم كانا على حياة أنبيائهم ، لم ترعهم المعجزات ولم ترعهم كرامة الأنبياء . (ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسول ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)^(١) . ثم يمارون في الحق ويخدعون إيمانهم (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا وكفروا بما وراءه وهو الحق مصدّقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون)^(٢) .

بل إنا لنعتقد أن بنى إسرائيل كانوا عبرة للعالمين ضرب الله بهم مثلاً وجعل منهم موعظة للناس ، فليس بعد من كرم بالنسب كرامتهم وليس بعد من اختير للرسالة وخصّ بالبركة قبلهم ولكنهم ضلّوا وهم ذرية إبراهيم وكفروا وهم من أرسل إليهم إسحق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء فكان جزاء ضلالهم عذاب الدنيا والآخرة وكان جزاء كفرهم هوان الحياة طوال الحياة ولهم في الآخرة جهنم وبئس المصير ، ليكونوا عظة وعبرة لمن لم يشرفوا بنسب ولم يكن لهم فضل الإيثار ، فإذا

(١) البقرة آية ٨٧ .

(٢) البقرة آية ٩١ - ٩٢ .

كان الله جلّت قدرته قد أنزل عذاب الدنيا والآخرة بينى إسرائيل وهم ذرية إبراهيم ومن آثرهم الله بنعمة البركة والرسالة فلا ريب من عذاب شديد يحيق بكل من كفر وضلّ سبيل الله حتى ولو كان ابن نبيين فالتناس فى ملكوت السموات سواء ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

ولقد ضرب القرآن بينى إسرائيل مثلاً فى كثير من السور والآيات فهم من أنعم الله عليهم وفضلهم على العالمين يكفرون بنعمة الله ويقتلون أنبياءهم فتحيط بهم اللعنة وينزل بهم عذاب شديد ، كذلك كان فى التوراة والإنجيل حتى لا يكون للناس من بعد عذر فى تقوى الله وطاعته .

ويجمع الإنجيل والقرآن على نعت بنى إسرائيل بالنفاق وتحريف الكلم عن مواضعه ففى متى « ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون » وفى القرآن (أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)^(١) .

ومن قبيل هذا التحريف ادعاء أرض الميعاد حقاً لهم وميراثاً عن أبيهم إبراهيم وادعاء التميز على شعوب الأرض وأن الله آثرهم وحدهم بالاختيار بتفسير التوراة على هواهم فمما لا يقبله عقل أو منطق أن يؤثر الله قوماً من عباده على آخرين ما لم تكن هناك حكمة فى هذا الإيثار ومما لا يقبله عقل أو منطق أن يكون الإيثار الإلهى مادياً بعقار أو جاه تنتفى معه الحكمة والتأويل . فالإيثار الذى كان لبنى إسرائيل الذى يجمع عليه القرآن والإنجيل هو الإيثار الروحى لذرية إبراهيم وهو إيثار البركة والرسالة لا الصلة والانتفاء ، وأرض الميعاد هى أرض البركة والرسالة وهى لمن حلّت فيهم البركة واهتدوا بهدى الرسالة ، وهذا هو ما عنته التوراة وما يعنيه الوعد الإلهى لإبراهيم .

ولم تشر أسفار العهد الجديد إلى هذا العهد الإلهي الذي رددته أسفار العهد القديم إلا بأن الوعد هو للموعودين بملكوته السموات سواء أكانوا من بني إسرائيل أم من غير بني إسرائيل .

ولم يشر القرآن إلى أرض موعودة لبني إسرائيل يتوارثونها جيلاً بعد جيل أبد الآبدين ولم يذكر غير قصة خروجهم من مصر وكيف أرسل إليهم موسى نبياً ورسولاً ليخلصهم من ظلم المصريين وليصعد بهم إلى الأرض التي « باركتها فيها للعالمين » وكيف عصوا موسى وعبدوا العجل فضرب عليهم التيه في بيداء سيناء أربعين عاماً ثم كيف كان ضلالهم وكفرهم بأنبيائهم فحق عليهم العذاب الموعود . ويضرب القرآن بذلك مثلاً لمن بغى وكفر بأنعم الله .

ومن خلال سور القرآن وما أنزل فيه عن إبراهيم وغيره من الأنبياء نرى تلك الصلة الوثيقة بين الرسالة التي بعث بها محمد ورسالات من سبقه من الأنبياء ، فمحمد قد بعث ليتم رسالة الساء ويكمل كما قلنا مرحلة التطور في كمال الأديان السماوية ، تلك الأديان التي أشار إليها القرآن باسم الإسلام ، وكلمة الإسلام من التسليم لله ، والمسلم من كان إيمانه بالله ، والله يسلم بذلك تسليماً لا تشوبه شائبة من شك ، أو شرك . ويسهب القرآن في ذكر من سبق من الأنبياء والرسل وكيف كان كل نبي منهم داعياً إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له وكيف كان كل منهم مسلماً لله يدعو قومه إلى الإسلام وكيف كان موقف هؤلاء الأقوام ممن بعثوا إليهم من الأنبياء وكيف كان عذاب الله لمن لا يؤمن من هؤلاء الأقوام فلم يكن الله ليمهل تلك الأقوام إلى أجل الآخرة ، بل يفجأهم بالعذاب الشديد وهم عنه غافلون جزاء ما أساءوا إلى أنبيائه ورسله ، كقوم ثمود وعاد ولوط وبني إسرائيل أنفسهم (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

وترتقى صور هذا العذاب وتتطور بتطور العقيدة الدينية وارتقائها ،
 فصور العذاب المادى الدنيوى قد انقلبت إلى عذاب الآخرة حيث تجزى
 كل نفس بما كسبت ، فجاءت المسيحية تبشر بالتوبة وغفران الذنوب
 وجاء الإسلام بالرحمة ، وأن رحمة الله تسع كل شيء . وكانت فاتحة
 الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد اتخذ الوعد والوعيد قبل
 المسيحية والإسلام صوراً دنيوية خالصة ، فالوعد بالتملك أو إكثار النسل
 والبركة في الحياة الدنيا والانتصار على الأعداء يقابلها الوعيد بالذل
 والعبودية والجوع والمرض والهزيمة والفناء ، ولعل ذلك كان سبباً في تفسير
 اليهود لمرامى دينهم تفسيراً مادياً خالصاً ارتبط في أذهانهم بالتفوق
 والاختيار والحكم والسيطرة وامتلاك الأرض وقيام الدولة وبناء الهيكل
 والاتصاق بالأرض التصاقاً اختلطت فيه العقيدة الدينية بالآمال
 الدنيوية .

ولهذا خلا الإنجيل وخلا القرآن من تلك الصور المادية للثواب
 والعقاب الدنيوى وإن حقلاً وعلى الأخص القرآن بالصورة المادية لنعيم
 الآخرة فإن الذهن البشرى لم يكن ليتصور عذاباً أو يؤساً أو شقاءً
 إلا متصلاً بحياته على الأرض ، وما كان ليتصور النعيم إلا في تلك الصور
 البراقة التي تراود أحلامه وأمانيه في حياته القائمة ، ثم ارتقى الذهن
 البشرى ليدرك أن حياة الأرض هي حياة فانية تعقبها حياة مخلدة
 فانفصلت صور الثواب والعقاب عن تلك الحياة الفانية لترتبط بالحياة
 المخلدة الباقية وأصبح الثواب ثواب الآخرة والعقاب عقاب الآخرة أيضاً
 وإن لبسا تلك الصور المادية للثواب والعقاب الدنيوى فقد أعدت جهنم
 للكافرين والجنة للمؤمنين ، ولا يعدو وصف جهنم والجنة ما نتصوره من
 مظاهرها المادية ، ولعل الذهن البشرى في ارتقائه الدائب إلى الكمال

يستطيع أن يفسر تلك الصور المادية تفسيراً آخر يتفق مع جلالها وعظيم خطرهما . فالأديان السماوية قد خضعت لناموس التطور الذى خضعت له الحياة منذ الأزل حتى فى البرهان الذى آيد الله به أنبياءه ، وبرهان نوح كان فى معجزة الطوفان والوحى إليه ببناء السفينة لينجو ومن معه من المؤمنين من خطر الطوفان ، وبرهان إبراهيم كان فى النار التى نجاه الله منها فكانت برداً وسلاماً عليه ، وبرهان موسى كان فى عصاه التى تنقلب حية تسعى وفى اليد التى تخرج بيضاء من غير سوء ، وبرهان عيسى كان فى إحياء الموتى وإبراء المرضى ، أما برهان محمد فقد سما على تلك الظواهر المادية إلى خطاب العقل ومناجاة الضمير ، ليرى الإنسان وينظر ويفكر بنفسه أين الهدى وأين الضلال ، أين الحقيقة وأين الباطل ، أين وحى العقل وأين وحى الخرافة ، فكان هذا الانتقال من عالم الحس إلى عالم الضمير بداية الكمال فى ارتقاء ذهن البشرى .

لهذا كان الخلاف بيننا بين التفسير اليهودى للعهد المقدس وعهود الرب مع إبراهيم . وبين كل من التفسيرين المسيحى والإسلامى .

فاليهود قد فسروا تلك العهود تفسيراً مادياً خالصاً فعبارة « أعطى هذه الأرض » فسّرت بمعنى الحياة والتملك وكلمة « لنسلك » بمعنى الذات أو سلالة المولد بينما فسّرها المسيحيون بمعنى الاتحاد بالمسيح اتحاداً روحياً أى كل من آمن برسالة المسيح هم من نسل إبراهيم ، وأن أرض الميعاد هى أرض الملكوت وهى لكل من حلت فيهم بركة المسيح وظفروا بنعمة التجديد .

ويأتى الإسلام فلا يذكر عن أرض الميعاد إلا أنها الأرض المقدسة التى « باركنا فيها للعالمين » ولا يرد ذكر للإرث والتملك أو أى عهد لإبراهيم مع الرب إلا عهد البركة والرسالة حتى إذا ذكرت قصة موسى مع بنى

إسرائيل نجد ما يشير إلى الأرض التي كتبت لهم (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبّارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبدًا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال ربّ إني لا أملك إلّا نفسي وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنّها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين^(١)) .

وقد يبدو لأوّل وهلة أن عبارة « الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » تفيد معنى التملك وما يتبع التملك من حقوق التورث ، ولكن الاستطراد يفيد أنهم حرّموا وهم على أبوابها أربعين عاماً ضرب عليهم فيها التيه لعصيانهم وضعف إيمانهم حتى أن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين ، فإذا لجؤا في عصيانهم فإن ما حرّم عليهم لسبب عارض ولزمن معين يحرم عليهم أبد الأبدان إذا ما انقلب هذا السبب العارض سبباً جوهرياً ، فإذا كان الله قد ضرب عليهم التيه أربعين عاماً حرّم عليهم فيها دخول الأرض المقدسة لأنهم امتنعوا عن دخولها ، وضعف إيمانهم عن الثقة بنصر الله وخافوا بطش الجبارين ، فما بالك إذا عظم الإثم فإنه أولى بمضاعفة الجزاء . وإذا أجمعت الكتب السماوية المقدسة - التوراة والإنجيل والقرآن - على ضلال بني إسرائيل وقد أجمعت على

ذلك فإن حرمانهم مما آثرهم الله به هو قرين آثامهم وعصيانهم لوصايا « الرب » وإن اللعنة لتحلّ بهم أبد الآبدين (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون^(١)) .

وإن عصيان بني إسرائيل وكفرهم بأنعم الله وآياته بعد أن آثام الكتاب والحكم والنبوة لقمين أن ينقلها عنهم إلى غيرهم (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين^(٢)) .

ويؤيد ذلك ما قلناه من قبل وهو أن الوعد المقدس هو وعد البركة والرسالة ، وهما في ذرية إبراهيم نبيا بعد نبيّ حتى محمد ﷺ ، وأنه حق لكل من آمن برسالة الأنبياء سواء أكان من ذرية إبراهيم أم غير ذريته ، وأن الأرض المقدسة هي للمؤمنين من هؤلاء ، وإن ذلك لينسخ دعوى بني إسرائيل في التميز والاختيار فلا نجد خلافاً حول ذلك في مدلول الكتب المقدسة وأولها التوراة ، وسنرى أن هذا الوعد الإلهي قد تحقق برمته في ذرية إبراهيم ، فكانت لهم الأرض المقدسة بغلبة أبناء إسماعيل على ما عداهم وانتشارهم في تلك البقاع قبل وبعد امتداد الموجة الإسلامية الباهرة إلى تلك البقاع وأصبحت الأرض المقدسة حرماً مباركاً في كلّ أديان السماء .

ويؤكد القرآن ذلك في صراحة ووضوح في هذه الآية الكريمة (وإذا

(١) المائدة آية ٧٨ - ٨٠ .

(٢) الأنعام آية ٨٩ .

ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتتهن ، قال إني جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين^(١) .

فوراثة عهد إبراهيم هي لمن آمن بالرسالة التي بعث بها ، وليس لذريته أن تدعى حق الوراثة في عهده ما لم يؤمنوا برسالته فإذا امتد الإيمان إلى غيرهم كان لهم ما لذريته من حق عليه ، فالإيمان لا يمكن أن يكون احتكاراً لأمة أو جنس يتوارثه بحكم النسب أو صلات الدم ، وإنما الإيمان إيمان القلب من رعاه في أي جيل وفي أي قبيل كان أولى بوراثة العهد من أبناء الصلب وأقرباء النسب ، فمن استقام على العقيدة فهو وريثها ووريث بشاراتها وعهودها ، ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله وزالت وراثته لهذا العهد وما فيه من تكريم وتفضيل وبشارة وتكين^(٢) .

ويسقط هذا كل دعاوى اليهود في اصطفايتهم واجتبايتهم لمجرد أنهم ورثة إبراهيم وبنيه لأن هذه الوراثة قد سقطت عنهم بزيغهم وتخليهم عن العقيدة الإلهية الخالدة .

ومما يدل على وحدة الدين الإلهي من اليهودية إلى المسيحية فالإسلام أن القبلة الأولى للمسلمين كانت بيت المقدس حتى تحوّلوا عنها إلى الكعبة ، وليس التحوّل عنها إلى الكعبة لأنها مقام إبراهيم ومصلاه ولا لأنها البيت الذي شارك في بنائه إسماعيل أب العرب فيكون أبناء إسماعيل أولى بقبليتهم من قبله أبناء إسحق ، ولكن الحكمة في اختيار بيت المقدس قبله أولى للمسلمين حتى يتأكد ذلك المعنى الكريم معنى وحدة الرسالة الإلهية منذ بعث بها إبراهيم حتى تمت على يد محمد ، وحتى لا يكون اختيار بقعة بالذات وإيثارها بالقداسة والتكريم إيثاراً على غيرها

(١) البقرة آية ١٢٤ .

(٢) سيد قطب في ظلال القرآن ج ١ ص ٨٤ .

فله المشرق والمغرب ، ولا يكون اختيار بيت المقدس إثارةً لذرية إبراهيم من إسحق واختيار الكعبة إثارةً لذريته من إسماعيل فإن كليهما في عهد أبيهما إبراهيم سواء ، ولعل في اختيار بيت المقدس أولاً ثم التحول عنه إلى الكعبة ما يرمز إلى تحول البركة والرسالة من ذرية إسحق إلى ذرية إسماعيل مع تأكيد الوحدة الكبرى للرسالة الإلهية في إبراهيم وانتهائها في محمد ، فإن الله جلّت قدرته ، لو لم تكن له في ذلك حكمة عليا لهدى رسوله إلى القبلية التي يختار منذ البداية ، فإن جعل لذلك سبباً فلأجل أن تبرز تلك الحكمة العليا وتستبين .

وكان هذا السبب حين حاجّ اليهود محمداً في مقامه بالمدينة في حين أن من سبقه من الرسل كانت إقامتهم ببيت المقدس وأنه إن يكن رسولاً حقاً فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة وبيت المقدس مدينة المسجد الأقصى . لكن محمداً لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به وأوحى إليه الله يومئذ على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل^(١) ونزلت الآية : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره^(٢)) .

وقد لا تغيب تلك الحكمة على ذوى الفطن بعد أن تحول المسلمون بقبلتهم عن بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة فإنه أول بيت رفع إبراهيم قواعده وذلك قبل بناء هيكل بيت المقدس بوضع مئات من السنين . فلم يكن الهيكل قبل ذلك وفي عهد البداوة غير خيمة اعتقد الشعب أن الله

(١) الدكتور محمد حسين هيكل ، حياة محمد . الفصل ١١ .

(٢) البقرة آية ١٤٤ .

يتجلى فيها للأنبياء والكهان ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل في سنى
التيه حتى أقام سليمان الهيكل بديلاً من الخيمة ومن المعبد الخشبي^(١) .
وكان إبراهيم في تجواله بأرض كنعان حين انحدر من حاران يقيم مذبحاً
للرب حيثما تجلّى له وكان أول ما أقام من هذه المذابح حين تجلّى له الرب
عندما اجتاز إلى « مكان شكيم إلى بلوطة مور»^(٢) « وحين نقل من هناك
إلى الجبل شرقى بيت ايل نصب خيمته وبني هناك مذبحاً للرب^(٣) » . وإلى
هذا المكان كانت أوبته بعد خروجه من مصر . ولما اعتزل أخاه لوطا ونقل
خيامه إلى « بلوطات ممرا التي في حبرون » وأقام عندها « بني هناك مذبحاً
للرب^(٤) » ، وكان كل ذلك قبل أن يولد لإبراهيم ولد ، ولا يذكر بعد ذلك
أن إبراهيم بنى مذابح أخرى للرب ، وقد اندثرت آثار تلك المذابح ولم يعد
لبني إسرائيل غير هيكل بيت المقدس وإن لم يكن لإبراهيم يد في بنائه .
أما البيت الذى بناه إبراهيم وبقي خالداً على الزمن فهو البيت الذى
أقامه حيث أسكن ابنه إسماعيل وتفجرت بئر زمزم وإن لم تشر التوراة
إليه إلا أن تاريخ العرب يؤكد ويذكره القرآن فى مواضع كثيرة . (إن
أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركاً وهدياً للعالمين . فيه آيات بينات
مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً^(٥)) .

والحكمة فى اختيار بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين ثم التحوّل عنه إلى
الكعبة هى الحكمة فى توكيد هذا المعنى من وحدة الدين الإلهى وهو المعنى
الذى أشار إليه القرآن وأكدّه فى أكثر من موضع حين دعا ما سبق من

(١) عباس محمود العقاد - عبقرية المسيح ص ٣١ .

(٢) تكوين ١٢ : ٦ .

(٣) تكوين ١٢ : ٨ .

(٤) تكوين ١٧ : ١٨ .

(٥) آل عمران آية ٩٦ - ٩٧ .

أديان بالإسلام وحين قال إن الأنبياء السابقين كانوا مسلمين وبعثوا برسالة الإسلام ، وما يؤيد ذلك أن هيكل بيت المقدس قد دعى في القرآن باسم « المسجد الأقصى » تمييزاً له عن المسجد الحرام وهو الكعبة (سبحانه الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير^(١)) .

وترتبط بهذا المعنى أيضاً حكمة الإسراء والمعراج ففى الإسراء يسرى محمد بآثار من سبق من الأنبياء فيقف عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى ثم يقف مرة أخرى عند بيت لحم حيث ولد عيسى وينطلق بعد ذلك إلى بيت المقدس حيث يلقى إبراهيم وموسى وعيسى فصلى معهم على أطلال هيكل سليمان ، ثم يرتقى المعراج مرتكزاً على صخرة يعقوب فيصعد به سراعاً إلى السموات فيلقى في طريقه إلى سدة المنتهى آدم ونوحاً وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى . فحكمة الإسراء والمعراج فضلاً عن أنها تمثل وحدة الوجود فى غاية كماله وجلاله فإنها تمثل أيضاً وحدة البركة والرسالة التى تمثلت فى هذا الرعيل من الأنبياء والمرسلين الذين لقي محمد فى إسرائه ومعراجه ، وهى خير مثال لوحدة هذا الدين الذى بعث به الأنبياء على اختلافهم .

وقصة إبراهيم التى يقص القرآن هى قصة رجل ألهم ما لم يلهم غيره من الناس فتبين خلال قومه بعبادتهم لأصنام يصنعها أبوه ، لا تفقه ولا تعى ، وسأل أباه كيف يعبدها وهى من صنع يده ، وانصرف يقلب وجهه فى السماء يتأمل جلال هذا الكون وما عسى تكون تلك القوة المبدعة الخلاقة التى سوتّه وأحسنّت صنعه وظنّها القمر ثم ظنّها الشمس ولكنه رأى القمر والشمس يخضعان لما يخضع له سائر الخلق حتى هداه الله

(١) الإسراء آية ١ .

فأسلم وجهه إليه (فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحبُّ الآفلين . فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين^(١)).

ولم ينجح إبراهيم في هداية قومه فهجرهم بعد أن نجَّاه الله منهم وارتحل غربًا نحو فلسطين ثم نزل منها إلى مصر حيث حلت بالبلاد بمجاعة ثم صعد إلى فلسطين مرةً أخرى وقد حمل معه هدايا الملك ومن بينها جارية هي هاجر التي أولدها بكره إسماعيل بعد أن دفعته زوجته سارة إلى الدخول بها إذ لم تنجب هي لإبراهيم وما أن شبَّ إسماعيل عن الطوق حتى حملت سارة وولدت إسحق .

وشبَّ إسماعيل وإسحق سوياً يلقيان من عطف أبيهما على حدٍّ سواء وأنكرت سارة أن يكون لابن الجارية ما لابنها عند أبيهما ، وأقسمت ألاّ تساكن هاجر وابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه ، ورأى إبراهيم أن العيش لن يطيب للمرأتين معاً ، فحمل هاجر وابنها جنوباً حتى انتهى به الرحيل إلى وادٍ قفر تجتازه الرواحل شمالاً وجنوباً فخلفهما فيه بعد أن ترك لهما بعض ما يتبلغان به ونفد الماء والزاد وأخذت هاجر تجيل طرفها فيها حولها فلا ترى شيئاً فنزلت إلى الوادي تلتمس ماء وجعلت تهزول بين الصفا والمروة حتى أنمت المرولة سبعةً عادت بعدها إلى وليدها واليأس يجتاحها فوجدت الماء ينبع تحت قدمه فأروته وارتوت ، وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع في الرمال واستهوى نبع زمزم بعض القبائل فأقامت

(١) الأنعام آية ٧٦ - ٧٩ .

إلى جواره وكانت جرهم أولى القبائل التي أقامت وإلى جرهم أصهر إسماعيل فاجتمعت في ذريته دماء العبريين والمصريين وعرب الصحراء فكانوا ذوى بأس وقوة وتمثلت فيهم فضائل العرب والمصريين والعبريين^(١).

ويرفع إبراهيم قواعد البيت الحرام كعادته في إقامة بيت الله حيثما يحلّ مثابة للناس وأمنًا ، ويعهد الله إليه وإلى ابنته إسماعيل أن يطهراه للطائفتين والعاكفين والركع السجود ، ويدعو إبراهيم ربّه أن يؤمن هذا البلد ويفي على أهله الخير (وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفتين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي

(١) هيكل : حياة محمد ف ٢ .

قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون^(١) .

وتقصّ الآيات البيّنات رسالة إبراهيم وعهده فتجمل بذلك رأى الإسلام في العهد الإلهي وورثة هذا العهد من ذريته أو من الناس أجمعين ، فإن الله تعالى ليبتلى إبراهيم ويحربه فيجتاز التجربة ويتم كلمات الله ويقوم برسائله لم يفتن ولم يغير ولم ييحد فاستحقّ تلك البشرى وحلّت فيه بركة الله فجعله للناس إمامًا يهديهم إلى الله ويكون لهم قدوة ، ويرجو إبراهيم أن يفيء على ذريته ما أفاء الله عليه فتأتيه كلمة الله قاطعةً وهي ألا إرث في عهده فلن يناله إلا من آمن بالله واليوم الآخر ولن يكون أبدًا للظالمين فليست لهم إمامة أو خلافة أو قيادة ولو كانوا من ذريته .

أما البيت الذي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده بأمر الله فهو بيت الله المحرام وهو مقام إبراهيم ، وهو مثابة وأمن للناس جميعًا لا يصدّهم عنه أحد ولا يروّعهم فيه مروع وهو مصلّى لهم لا يمنعهم أحد عنه فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فليس البيت لقبيل دون قبيل ولا لأمة دون غيرها وليس إرثًا لأناس يمنعونه عنّ يريد أو يصدّون عنه من تهفو نفسه إليه بل هو للناس جميعًا وما لأحد عليه من سلطان . وإذ عهد الله لإبراهيم وإسماعيل (أنّ طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) فهو عهد إليهما أن يقوما بسدنته وليس لها فيه من حق غير هذا فالبيت بيت الله وليس ملكًا لها وليس لها أن يورثاه إلى غيرها . وتؤكد الآيات التاليات أمن البيت ومن يلوذ به كما تؤكد أن الإرث للبركة والرسالة فإن إبراهيم يدعو ربّه أن يفيء الأمن على بيته وأن يرزق

(١) البقرة آية ١٢٤ - ١٣٤ .

أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر أما الذين لا يؤمنون فيمهلون قليلاً ثم يضطرون إلى عذاب النار وليس لهم من فرار .

وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت فإنها ليدعوان الله ويستهلان إليه أن يتقبل منها وأن يفيء عليهما وعلى ذريتهما نعمة الإسلام وأن يبعث فيهم رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم فتحل فيه بركة الرسالة ، رسالة الإسلام ، وفيمن تبعه بركة الإيمان وينتهي إليهم إرث إبراهيم بنعمة الإسلام ، فما كان إبراهيم إلّا مسلماً بأمر ربه اصطفاه الله وذريته لهذا الدين الحنيف الذى بعث عليه الأنبياء جميعا منذ إبراهيم حتى محمد عليهم السلام أجمعين ، وتلك أمة قد خلت لا تربطها صلة بأمة جاءت بعدها وضلت طريقها فلكل منها ما كسب ، ولا مجال للتعلق بوراثه قد تقطعت أسبابها فلا تسألون عما كانوا يعملون فلكل منها حساب ولكل منها طريق .

وهكذا تقطع تلك الآيات البيّنات بأن عهد إبراهيم هو عهد البركة والرسالة لمن آمن من بعده من ذريته أو من غير ذريته وإن كان الله قد كرمه أعظم التكريم فكان كل الأنبياء من نسله أما الإيمان فليس وقفاً على نسله بل هو للعالمين جميعاً ، فلا مكان للاختيار أو التميز أو الاستعلاء في أمر يتساوى فيه الناس أجمعون ، والأرض أرض البركة وقد كنى الله تعالى عنها بالبيت الحرام هي لله وحده يورثها من يشاء من عباده الصالحين وهي للناس جميعاً من كل قبيل ومن كل أمة فإن كان الله قد وعد بها إبراهيم فلم يعد بها غير المؤمنين من ذريته .

وهذه هي كلمة الإسلام في الوعد الإلهي لإبراهيم ومعنى هذا الوعد الإلهي ومدى ما لذريته من حق في وراثته لا يختلف ما جاء به الإسلام عما جاءت به المسيحية ولا يختلفان معاً عما جاء في التوراة .

وقد صدق الله وعده فكان من إبراهيم أمة كعدد نجوم السماء ، وكان
منها أنبياء وملوك وورثت تلك الأمة أرض الميعاد كما يقص التاريخ بعد
ذلك .